

الصادر • وقاضي الحق • والقائف على مثال كلية ودمنة وتفسير منار القائف • ومهيج
الاسرار • وملطي السبيل في المواعظ • والمواعظ السنية ونظم السور • والختير النافع
في النحو • وخطب الخليل عن السنتها • ورسائل المعونة • والصالح والساجح • وزجر
النائح يتعلق بلزوم ما لا يلزم • والسجعات العشر في الوعظ • وسجع الخاتم • والسجع
السلطاني في مخاطبات الملوك والوزراء • وسجع الفقيه • وسجع المضطربين عمله لرجل
تاجر يستعين به على دنياه • وشرف السلف عمله لامير الجيوش • واهم مؤلفاته الابلج
والغصون او الهمة والردف لم يغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والادب
الا احصاء ما يقع في الف ومائتي كراس وربما بلغ اربعين مجلداً من كتبنا اليوم • الى
غير ذلك مما يغني قليله عن كثيره

فهذا شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة وهذه آثاره التي خلفها لتاريخه
الله تشدد قول ابي الفتح حصينة المعري فيه :

وعجبت ان تسع المعرة قبره ويضيق بطن الارض عنه الاوسع
لو فاضت المبهجات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الادمع
زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف

نظر لآفي النظرات

نقمة ماورد في الجزء الماضي

اراد المنفلوطي في كلامه هذا ان يخطي " الامام بأن مادعا اليه من المبادي الدينية
لم يحن بعد وقتها وان سواد هذه الامة لم يتأهلوا لقبول هذه المبادي " جاعلاً ذلك علة
العلل في الحادهم ومروقهم من الدين وهو قياس منطقي أعيد المنفلوطي عن ان يحشوفكره
بمثله من الاوهام والخيالات التي ابان فيها عن فكر ليس له حظ من التجربة والاختبار •
لا يستطيع صاحب النظرات فيما علم ان يتكر ان جل الداعين ان لم اقل كلهم انجهم
الدهر وولدتهم العصور في اوقات كانت فيها الافكار حيرى يتقارع بعضها بعضاً في ميدان
الحياة • ومن هنا نعلم الحاجة الماسة الى المرشدين في مثل هذه الاحوال الحرجة والمآزق
الضيقة وانهم " قد قاموا بفكرة اصلاحية لا بد ان يلاقوا في طريقهم من عثرات الفريق
المخالف ما يستهدفون معه انشروب الابداء فيقومون بين مثالب الطعن والتقد حتى تنسرب

الفكرة الى بعض من يعمل على نشرها في سرهم وجهرهم ليبقوا من سعيهم هذا خيبة حيوية في المجتمع الانساني لمن يأتي بعدهم من تجد لها من عقولهم مباءة فتتأصل في نفوسهم فيستفيدون اذ ذاك ويقيدون بما يدعون اليه ويسعون وراء اشرابه النفوس ما وجدوا الى ذلك سبيلا .

بمثل هذا قامت المذاهب والاديان وتأيدت الآراء العلمية والنظريات الفلسفية . واذا لم يكن الامر كذلك فلنبدل لنا المنطوي برهانا يبين مصلحا قام بفكرة جديدة ولم يبق في وجهه في يثبته حتى من بني جلدته من يعمل على محاربتها او ناهضته بكل ما فيه من قوة وقدر .

ويا لله كيف جازله ان يحكم على ان المبادي السامية التي دعا اليها الشيخ محمد عبده كانت مدعاة للالحاد والمروق من الدين بدعوى ان دعوته لم يحسن بعد وقتها او انه يوجد ثمة من يمتثلها وينبذها وانها نشرت بين فئة اتخذوا من هداها ضلالا ومن نورها دجى حالكا . وهو لا تلامذته مصريهم وشاميهم وعراقيهم وحجازيهم في عامة الاقطار يتناغون في مبادئه ويتدارسون كتبه لم ينظر اليهم الاستاذ المنطوي ونظر الى فئة ضالة مضلة لا بد من وجودها في كل عصر ومصر .

وكان الواجب على من لم يفهم ما اراد الاستاذ الامام واشتبه عليه بأن يسأل عنه اهل العلم فقد قال احد شيوخ العلم : « يستحيل في نظر العقل ان يدعو الحق الى الباطل والهدى الى الالحاد وأصول الدين الصحيح الى المروق منه ، بل ما بطل مبطل ولا الحد ملحد ولا مرق مارق الا بجهل بالاصول الصحيحة وثبذه التلم السديد وسلوك جواده القويمة » .

ولو كان من شروط الدعوة فقد التأثرين خشية مناهضتهم ومخاربتهم لما قام نبي بدعوة ولا علم بأرشاد وتعليم ولكانت الفكرة الاصلاحية التي قويت وشاعت بالمناهضة ثوت في توى الزمن قبل ان يلحد القائم بها ولما كثر رأينا كتابا مؤثلا ولا ادبا غصا ولا علما صحيحا وبالجملة ما كانت للام مدنية زاهرة ولا عمران زاخر .

ولا وجه لانكاره على هذا الامام التأويل لان اتخاذ التأويل قاعدة مما لانكران فيه في كل تأويل جرى اللسان في مثله ووسعته اللغة وهي ثروتها وغزارة مادتها وسعت من المجاز ما يربو على الحقيقة حتى صرح أئمة البيان بأن المجاز اكثر من الحقيقة . ولو اعار نظره الى من سبق ذاك الامام في مسألة الجن والملك كحجة الاسلام الغزالي والراغب

الاصفهانى والقاشانى ونحوهم لما اكبر هذه المسألة وقد اوضح ذلك الاستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى في كتابه «مذاهب الاعراب وفلاسفة الاسلام في الجن» وافاض في هذه المسألة بما لا يبقى معه ريبه لمرتاب فليرجع اليه من شاء^(١)

واما ما قام به الامام من بيان اسرار الدين وحكمه فذاك فن قديم عني به ائمة الاسلام وفلاسفته كالائمة الذين تقدم ذكرهم واضراهم وهو عندهم من اجل الفنون التي يجب درسها والتوسع فيها . وقد اخذوا على انفسهم ان يفهموا الامة ان الدين مواءم للعقل موازر للحكمة ليس فيه ما يعلو عن العقل او ينو عن الفهم وحجتهم في ذلك ان القرآن الكريم هو الذي مهد السبيل للتعليل وصرح بذلك في آيات لا تحصى كما اوضحه الامام ابن القيم في كتاب «التعليل» وقد حذا حذوه من المتأخرين حتى برع في هذا العلم — علم الحكم والاسرار — الامام ولي الله الدهلوي قال في كتابه المشهور «حجة الله البالغة» وافرغ جهده في استنباط الاسرار في العبادات والمعاملات حتى جاء في مجلدين كاملين حافظين . ولقد سفه المنفلوطي رأي قاسم بك امين ايضا وانحى عليه لانه دعا المرأة وقد رآها في احط دركات الجهل الى ان تلم بمعرفة ما يلزمها في جهاد الحياة وجلادها من تربية وتعليم لتكون امرأة صالحة لهذا المجتمع فتدير شؤون منزلها او تضرب في الارض لترزق ان عضها ناب الفقر وتجت بموت من يعولها ويكفلها وهو لم يدعها الى ذلك — كما يعلم المنفلوطي — الا خشية ان يمزق الحجاب وهي من الجهل المربع بمكان .

وما ذنب قاسم بك ان بين رأيه ولم يأبه لكيد الكائدين من تجار الادب والدين «والمرأة اخذت بالاسهل من رأيه وبالصق بنفسها من نصيحته فتبرجت ورفعت برقعها قبل ان تنسج لها برقعاً من الادب والحياء»

ومما لامشاحة فيه ان رجل المرأة قاسم بك قام بدعوته احسن قيام فوصف الدواء بعد ان شخص الداء ولو كان في البلاد الاوربية لاتيتم له النصب والدمى — وان كان صاحب النظرات لا يقول بالتمثيل — احتفاء به واعترافا ببيض ايديه وسابقة فضله عليهم او لو كان المنفلوطي يقدر عمل العامل وفضل الفاضل لما جراً على ان يقول فيه : «ما رأيت باطلا اشبه بالحق من باطله»^(٢)

(١) طبع في الاعداد الثلاثة من المجلد الخامس من هذه المجلة ثم أفردها منها كتاب

خاص على حدة (٢) مقالة طبقات الكتاب ص — ٤٣٢

— ٣٥ —

آراؤه

ذهب الاستاذ المنفلوطي في طائفة من آرائه مذاهب فريق من فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر في اوربا حتى قابله بعضهم بروسو من حيث نظره الى المجتمع الانساني وبما قالوه : ان ما كتبه روسو في فن التربية والتعليم قائلا : « ايها الرجال ، لاترهقوا النفس الصغار على ان يفكروا كما تفكرون ويعتقدوا ما تعتقدون ولا تحاولوا افساد ملكاتهم بهذه الفضيلة الموهومة والحرية المطلية التي هي في مذهب العقل غاية العبودية ومنتهى الاسترقاق الخ ٠٠٠ » — ان ما قاله روسو تعرض له المنفلوطي في فصل له عنوانه « مدينة السعادة » ^(١) « واغرب ما لقت نظري افي لم ار في تلك المدينة ذات التمايز الذي اعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم وازياتهم كأن جميع سكانها سواء في حالة المعيشة ودرجة الثروة »

وفي المنفلوطي نزعة اشتراكية تفجلى على اشدها في هذا الفصل في قوله : « وحسب الرجل من البشر بيت بوويه ومزرعة صغيرة يقتات منها ودابة تحمل اثقاله ثم لاشأن له فيها سوى ذلك »

وقالوا : يرى روسوان الدور العالية التي شيدتها الحكومات للتعليم هي التي تفرس مبادي الجهالة في النفوس وتبعد الانسان عن عقله وفطرته ^(٢) والمنفلوطي يقول : « واي حاجة الى المدارس في مثل هذا المجتمع وليس بأمر بآبائنا منا فنحن الذين نتولى تعليمهم وتهذيب نفوسهم وتمرهم على العمل النافع فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم كيف يرمون البذور وكيف يستنبثونها وكيف يصنعون الآلات الزراعية وكيف يستعملونها الخ ٠٠٠ »

وبالجملة فمن رأي الشيخ المنفلوطي ان لا يكون في هذا المجتمع سيد ولا مسود ولا غني ولا فقير ولا حاكم ولا محكوم فالشطر الاكبر من الفلسفة التي يتبني اثرها هي فلسفة خيالية لاتأثير لها في ابناء القرن العشرين الا بقدر ما للاساطير من التأثير في العلوم الرياضية . وهي ان جاز ان يكون لها انصار قبل مائتي سنة او يزيد فلن تجد لها فيما احب من هذا الجيل الجديد الناشئ على افكار داروين وهيكلي وسبنسر ورائكي ومومسن وبازاك وزولا نصيراً وظهيراً لانها مخالفة لسنن الطبيعة والحياة العملية .

وقد ذهب مذهب (اسكندر دومافيس) ولقيف من مفكري المتأدبين الغربيين في مقالته «غرفة الاحزان»^(١) في المرأة المحرمة من حيث انهم يهدون لها الاعذار ويرون الرجل اجدر باللائمة منها لانها ضعيفة مقرطة الشعور ولانه هو الذي هم بها فراودها عن نفسها واراد ان ينزل بها سوءة فخذعها اذ عاهدتها ان تكون له زوجة ويكون لها بعلا فسلها قلبها وشرفها وعفتها وغادرها حين علم ان في احشائها جنينا يضطرب وبين جنبها ناراً تضطرم وكان سبب شقاؤها حتى اصبحت حزينة ذليلة تفضل الموت على عيش لا تستطيع معه ان تكون زوجة لرجل أو أمًا لولد واخذ المجتمع البشري يتهم بها ويبعث مما زادها حزنا واكتئابا .

وقد مثل لنا هذه البغي وقد تركت وراءها مآثرها من النعمة الواسعة والعيش الرغد في ذلك القصر الذي كانت متمتع فيه بعشرة امها وابيها الى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه احد ولا بطرقه طارق لتقضي فيه البقية الباقية من حياتها .

ولم يكتف ببيان هذه الجناية وحدها بل جعل ان امها واباها قضيا حزنا لفقدوها ويأسا من لقاءها وختم الحادثة بان اضاف على تلك الجنايات جنابة اخرى وهي هلاك المرأة المحرمة بعد ان اودع نفسها من العواطف الشريفة ما شعرت معه بمصيرتها حتى ساورتها الهموم وبلغت منها مبلغا اودى بحياتها وهكذا ضاعف الجرم على الرجل وجعله كاذبا وخادعا ولصا وقاتلا وختم المقالة وهو يحض الرجال الفاسية قلوبهم النصيح للرفق بضعيفات النفوس من النساء .

والظاهر ان الاستاذ المفلوطي كان لا ينظر الى الحقيقة من حيث هي بل كان قلما حين يأتي على وصف حادثة يختلف باختلاف المظاهر والمؤثرات فيينا نرى صفحات مقاله هذه مكتظة بأمثلة النفوس شققة ورحمة وعطفا وحنانا على العاهرات اذا به يرضن عليها بجندي يقف ليخفروها ممن يريد ان يسلبها من الحقوق مالم يبق لها منها الا القمء ويستكثر عليها ذلك في موقف هي خليفة بالشفقة والعناية اكثر من كل المواقف .

ولقد رأينا وهو يتكلم على «المرقص» في الازبكية يحمل على الحكومة المصرية حملة منكرة ويحذم غيظا وحنقا لان هذه الحكومة المدنية المادية (على رأيه) التي هي مسؤولة امام القانون عن استقرار الامن واستنباها تبث بجندي يحمي ابواب العاهرات لتلا يبعث المشاغبون بالامن والسكينة او يعيشوا في الارض قساوا .

ومما قال : ^(١) « ان العين لا تكاد تملك مدامعها سحاً وتذرافاً كلما ابصرت هذا الجندي الشريف واقفاً هذا الموقف الدليل يسمع قواع الدفوف ، لاقراع السيوف ، ويرى حمرة الصبا ، لاحمرة الدماء ، ويحس الفسق والفجور لا القلاع والثغور . وما اعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضن بمجنديها ان يشتمه شاتم او يلتمسه لاس فتغضب له غضبة مضرية تترأى فيها الشهامة والحمية والعزة والنخوة ثم لانضن ان تؤجره نائكة في الجنائز ، او قوادة في المرافض »

هذا ما قاله المنفلوطي وما يحدوه الى هذا الا انه وده ان يكون سيفه طليعة من يعمل بالدرس الذي القاه على الرجال القاسية قلوبهم ليعلمهم فيه الشفقة والرحمة والاحسان !!! وما اراه في مبداء هذا الاكتولستوي الفيلسوف الروسي الشهير الذي يهيج هائج على الحكومة الروسية ويسمها بالمعرة والدعارة لانها تبعث بالاطباء الى المواخير العامة وتهد اليهم ان يعنوا بشطيرها خيفة ان تنتقل جرائم الادواء الدوية من هؤلاء البغيات الباغيات فتعم الشعب بأسرها وتراه يرمي الاطباء بكل مكروه بدعوى انهم يدعون وراء اشاعة الموبقات وتسهيل اسباب الفسق والفجور ^(٢)

ويقضي علينا الاخذير أي هذا المصلح الاخلاقي الروسي ان نهمل تعهد اما كن الفسق والمواخير وان ندع الجرائم فتفك بمن ملكت عليهم امرهم لتسري العدوى في الآخرين وتنتشر الامراض الوبيثة الوبيطة في الامة حتى تهلك عن آخرها بدعوى صون اخلاق الشعب كيلا يتطرق اليها الفساد والخلل .

وقد رحم السيد المنفلوطي للمرأة البغي في غير هذا الموضع ايضاً وحض على الزوج بها ^(٣) ليرد اليها عرضها وزعم ان ذلك من اعظم التبرعات وعد الرجل الذي يرد العرض للضال الى صاحبه المفجوع فيه اشرف ممن يمنح الحياة فاقدتها . على شرط ان يكون الباعث على الزواج الرحمة والرأفة والحنان والشفقة لينظر في اصلاح قلبها ويحاول ان ينزع من جنبها ملكة الفساد الراسخة في نفسها ويدخلها مداخلة المؤدب المذهب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها .

ومما قال : « ليت الرجال يأثمون جميعاً على ان يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة (الزواج) كل امرأة ساقها فقرها وعدمها او فقد عائلها الى البقاء »

(١) ص ١٥٢ (٢) رواية البعث لتولستوي (٣) مقالة الاحسان في الزواج

وقد صرح في هذه المقالة ان « بغاء البغي شقاء ما جناه عليها الا الرجل فنجدير به ان يغم ما اتلف ويصلح ما افسد » وتعرض للمرأة ايضا في مقالة التوبة ^(١) فكأن بين جنبيه جذوة نار من الحقد والموجدة لتقد على الرجل لانه قتلها وعلى المجتمع الانساني لانه لا يعاقب القتائل على جرمه ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

والغالب ان ثقته بالجرائد المصرية ضعيفة جداً فهو يراها نادياً من اندية القمار والكتاب جماعة اللاعبين والروؤوس المصرية موضوعة على مائدة الالعب كما توضع الاكر على طاولة « منضدة » (البلياردو)

والسيد وطني سلمي معتدل يفضل اتفاق الاحزاب السياسية على اختلافها وتعارفها على تناكرها مادامت الغاية من تأليفها « تحرير الوطن من رق العبودية »

ومن رأيه ان العلماء والجهلاء سواء ^(٢) وليس بين الفرقين من الفرق الا ان هؤلاء لا يعرفون كيف يعبرون عن آرائهم وانكارهم واولئك امرض منهم في كيفية افشاء الحكمة اليهم وسعيهم وراء وعظهم وارشادهم وان ما ينطق به الحكيم العالم من جوامع الكلم هو نفس ما يأتي به الجاهل من الامثال لولا ان كلام الاول في اسلوب مجود ومقال الثاني في تعبير مبتذل .

بقول قوله هذا ثم يكتف في مقالة « موت العظاء » مانصه : ^(٣) « ليست هذه العشرة ملايين (يعني المصريين) التي تراها الاطفال الارضع ، وسوائهم رتع لولا علماءها واذكيائها الذين يقودونها الى الخير ويأخذون بيدها في ظلمات الحياة »

فليت شعري اذا كان العلماء والجهلاء في مستوى واحد من العلم والتربية فلماذا ينبغي على أمته وابناء دياره وينظم منزلة الحيوانات العجم وفيهم العالم والجاهل . واذا كان المنفلوطي قد وجد في معاجم اللغة ان ماد في العلم والجهل من الالفاظ المترادفة فيكون كلامه حينئذ جامعاً لمتناقض الاحكام .

— ٩ —

لفته

لم ارفها رأيت من الكتب الممتعة التي وعت نتاج قرائح اهل الادب في هذا العصر كالريحاني وامثاله انصح لغة ولا اصح تركيباً من كتاب « النظرات »
فانك ترى على فصوله مسحة العربية الاولى وقد خلت في الغالب من ركائبات الكتاب

الجدد والمبدوء من تراكيهم وجملهم المتعاطلة التي اعتورتها العامة حقبة من الزمن
انسلخت فيه عن العربية الخالصة حتى اصبحت الى الاعجمي اقرب منها الى اللسان
العربي المبين .

بيد اننا نرى من الواجب ان لاثمك القلم في نقد ماراً بناه من سقطاته سيفه حمل
نزلت منزلة اقوال العامة والفاظ لغوية كان الاجدر بكتاب ادبي مثل هذا ان يكون
مصوناً عنها .

فما نأخذه به استعماله فعل (ازدرى) متعدياً بالياء والعرب لا يعرفونه الا متعدياً
بنفسه في قوله في مقالة « النبوغ » « من العجز ان يزدرى المرء نفسه » واستعماله
(الوظيفه) بمعنى (المنصب) وقوله : « خرج في المنطق عن الحيوانية والناطقية »
والصواب ان يقال : « من الحيوانية والناطقية » وقوله « جداً عجيب » والاولى ان
يقال « عجيب جداً » لان « جداً » اذا قدمت اضيفت الى ما بعدها ونسبت « بديهية »
على « بديهي » وكان عليه ان يقال (بدهي) كما يقول سيف « ببجيلة (ببجي) واستعماله
(تلاثم) بمعنى التأم في قوله في مقالة الجمال « غير متناسبة ولا متلائمة » وقوله : « ويحبس عليها
اناسها » فالتحبس هنا لا تعتمدى الا بـ « عن » فاذا تعدت بـ « على » كانت بمعنى
« الوقف » واستعماله « البسيط » بمعنى « الساذج » وقوله « ودققت النظر » والعرب
تقول . « دقق الشيء اذا انعم دقه » واستعماله « تربى » بدل « ربى » وجمعه لفظة
« مثل » على « امثلة » والسموع « امثال » وقوله « في السنة العامة » والصواب « على
السنة العامة » واستعماله « الاعواج » بدل « الاعوجاج » و « تعرج » عوضاً عن
« تعوج » و « احتجز » بمعنى « منع » وقوله « لاتسلم الا الحياة » وهي عامية والافصح
« ولاتقادي الا بالحياة » وادخاله « واو الحال » على الماضي بعد الا كما انها لاتدخل على
المضارع المثبت في قوا . « فارأيت سطوراً متطورة الايسط متشابهة الاطراف الا
وقرائتها » وقوا . « نهشه في اصبعه » والصواب « نهش اصبعه » واستعماله « الاعراض »
بمعنى « العلامات » وقوله « يودعه الله في فطرة الانسان » والصواب « يودعه الله
فطرة » الخ

هذا ماراً بنا ان تنبه على ماورد في كتاب النظرات من الالفاظ والجل مما لا عهد للعرب
به كما ان ثمة الفاظاً اغفلنا ذكرها كاستعماله لفظة (المراسح) بدل (المسارح)

و (البالونات) عوضاً عن (المنافيد) و (الميكروبات) بدلاً من (الجراثيم) و (الطاولة) بدل (المنضدة)

والعاقل يغتفر له هذه الهنات البسيطة إذا عرف أن الكاتب بين ظهري أمة معظم صحافيتها وأدبائها وكتابها يرون أن في هذه اللغة التي يكتبون بها الغناء والكفاء عن أن يتحدوا العرب العاربة في مناجي أساليبهم وأقوالهم والله في خلقه شؤون .



وصفه

وهب السيد المنفلوطي ملكة خارقة في الوصف تكاد تكون فيه طبعاً وسليقة . واني لأقرأ له القطعة الأدبية فيجئني الي من سرها أن تفحة من فلم « هيكو » تهب علي فلا أكاد أتم قراءتها حتى أتم باعادتها المرة بعد الأخرى وأحمد الله أنني أن رجدي في هذا العصر من يفتح هذا الهيكل البالي من الأدب روحاً جديدة ليحيي حياة رغد وهناء :

قال في مقالة الغد : ^(١) « الغد بحر خضم زاهر يعب عبابه وتضطرب أمواجه ، فما يدريك أن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر أو الموت الأحمر »
« ولقد غمض الغد عن العقول ودق شخصه عن الأبصار حتى لو أن انساناً رفع قدمه ليضعها لا يدري ايضاً علي عتبة القصر أو علي حافة القبر »

« الغد صدر مملوء بالأمرار الغزار تنوم حوله البصائر ، وتسقطه العقول ، وتندرجه الانظار فلا ييوح بسر من أسرارها إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال »

« كأنني بالغد وهو كامن في مكنته رايبض في مجتمه مثلفع بفضل أزاره ينظر الي آمالنا وأمانينا نظرات الهزؤ والسخرية ، ويتشم ابتسامات الاستخفاف والازدراء »
« يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث وهذا الباني أنه يني للخراب ، وهذا الوالد أنه بلد للوت ماجمع الجامع ولا بني الباني ولا ولد الوالد »

إلى أن قال : « أيها الشبح المائم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لتري لحة واحدة من لحات وجهك . أولاً فاترب منا علنا نستطيع أن نستشف خيالنا من وراء هذا اللثام المسدول فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك »

« أيها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً ، وأمانياً حسناً وغير حسناً . فخذثنا عن

آمالنا اين مكانها منك ، وخبرنا عن امانتنا ماذا صنعت بها أاذللتها واهنتها ، ام كنت لها من المكرمين . لا لا ، من مرك سيفي صدرك وابق لثامك كئي وجهك ولا تتحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وامايننا حتى لا تفجعنا فيها فتفجعنا في ارواحنا ونفوسنا فلأما نحن احياء بالآمال وان كانت باطلة ، وسعداء بالآماني وان كانت كاذبة .

وحسبنا هذه القطعة الذهبية التي اوردناها هنا دلالة على مكانة الكاتب من ملكة الوصف ومبلغ ما وهب من القوة الطبيعية في التثر الشري او الشعر المشور .

وللنفلوطي في بعض فصول كتابه تشاويه جميلة واستعارات جديدة ربما غمضت على عقول من اعتادوا تعجيد القديم من المتأدبين او تعامى عنها بعض من يرى « المعاصرة حراماً » فلم يرقموا لها شأناً ولم يقيموا لها وزناً كقولوه : ^(١) « قنشت عن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغني اما شحيحاً او مثلاًفاً . اما الاول فلو كان جاراً لبيت فاطمة (رضي الله عنها) وسمع في جوف الليل انينها وانين ولدتها من الجوع ما مد اصبعيه الى اذنيه ثقة منه ان قلبه (المتحجر) لا تنفذ اليه عاطفة الرحمة ، ولا تمر بين طياته نسيات الاحسان » وربما انكروا عليه وصفه القلب بالتحجر وعد جعله الاحسان نسيات اغراقاً منه في الجواز ومبالغة في الاستعارة ولكن الحقيقة في غير ما يزعمون .

ومثل قوله : « فقد عقد رياء الناس امام عيني سمحاً سوداء اعظم لها بصري حتى ما اجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ولا كوكباً ساطعاً » وقوله « درع منوجة من نسيج » وقوله : « بهذه الصواعق التي يمتطرونها علينا من سماء الصحف » ومن جملة الجميلة قوله : « وما نشر الظلام اجنحته الرداء في الافق حتى رأيتني احير من دعة وجد في مقلة عاشق يدفعها الحب وينمها الحياء . لا اعلم هل انا سر كامن في باطن الظلماء ، او حوت مضطرب في اعماق الماء » وقوله ايضاً : « وهناك احسست بسلسيل بارد من الامل يتسرب الى قلبي فينتع قلته ويطغى لوعته » وقوله في مقالة يخاطب بها المحزون : « انت سزين لان نجماً زاهراً من الامل كان يترأى لك في سماء حياتك فيملاً عينك نوراً وقلبك سروراً ، وما هي الاكر الطرف انت افنتدته فا وجدته » وقوله : « ابتسامة هادئة » الخ . . .

وقد اجاد الشيخ في مقالة « غرفة الاحزان » ^(٢) ايما اجادة حتى ان قاري القصيدة ليجد اثرها في نفسه بعد قراءته لها في دعة تترقق في جفنه فتتم عن عواطفه وشعوره . وما هي

لوثقت الا جائزة القلب الى العراغ الذي خط تلك السطور بأسلوب يتدفق شعراً وشعوراً .
ولا يسه الا ان يكبر ذلك الوصف الذي لم يعامة اطراف الحادثة اكباراً فكان جامعاً
لما تشعر به النفس من ديب الآلام واعياً لما يصدر عن النفس السامية من
شريف العواطف .

— ٦ —

روح المؤلف

اذا صححت النظرية القائلة بان « الكتابة صورة الكاتب » جاز لنا ان نحكم على المؤلف
انه من جماعة المتشائمين *Pessimistes* ولكن لا في مذهب من المذاهب
الفلسفية او التاريخية او السياسية بل هو من يرون ان لاسعادة في الحياة ولا نهاء وان
من العبث ان يلقي المرء بنفسه الى التهلكة في معترك الحياة مادامت الرذائل آخذة
من النفوس مأخذها وان مانسميه فضيلة ليس الا خداعاً ورياءً وتفاكاً دعيت بالفضيلة
وهي ليس لما ظل في هذا الوجود .

هو ينظر الى المجتمع نظار الخائق الثاقم لانه يعتقد انه « مصاب بالسقم في فعبه
والاضطراب في تصوره فلا عبرة بحكمه ولا ثقة بوزنه وتقديره اذ هو يسمي الفقير
سافلاً وطيب القلب مغفلاً وطاهر السريرة بليداً والحليم عاجزاً »^(١)
وانك انرى في مقالاته « اين الفضيلة » روح اليأس مجسمة وما يتخيله او يفكر به هو
قد مر بخاطر كثيرين من أدباء المشرق والمغرب وكثيراً ما اجهد الكاتب من هؤلاء نفسه
ليضع قصة يأتي بها على شروء العالم ومفاسده وكنت كلما مررت بسطر من سطره تصب
اللعنات على هذه الحياة التي تراها مثال الشقاء وتمثل آتخذ بقول الشاعر العربي الحكيم :

انما نحن بين ظفر وناب من خطوط اسودهن ضراء
نتمنى وسيف المني قصر العمر فنفسدو بما نسر نساء
صحة المرء السقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نفتديه نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
مالقينا من غدر دنيا فلا كما نت ولا كانت اخذها والعطاء
من فساد يحويه للعالم الكو ن فدا للنفوس منه القاء
قاتل الله لذة لا ذانا فالحما الامهات والآباء

نحن لولا الوجود لم نألم الفقد فأيجادنا علينا بلاه — الخ . . .

بذلك تلى هذا اخذاً ما نراه له في مقالة « التمرة البيضاء »^(١) وبني بها شجرة المشيب التي رأينا تلوح في فوده بخاضها مؤنثاً اياها بانها تدفني له المرات وياغ في تأنيبها وتعنيفها ، وأغرق في عتبها ولومها ثم رجع بعد ذلك لنفسه وكأنه ندم على ما فرط منه بجبنها واخذ يخاضها قائلاً : « ما الذي يجعله في صدره لك من الحقد والموجدة رجل لم ينم بشبابه فيحزن على ذهابه ، ولم يذوق حلاوة الحياة فيمزع لمراة المات ولم يستشق نسائم السعادة غضا رطباً فيأسى عليها عوداً يابساً »

« ما الذي ينقمه عليك من التوؤن رجل يعلم انك وحى الامل الذي يشربه بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناء الا لحظات قليلة بكدرها ما يحيط بها من المومم والا كدراك كما تذكر انفاس الحزن الحارة صفحة المرات »

« اليس كل ما اعدء عليك من الذنوب انك طليعة الموت الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالسرور والآثام ، الخافل بالآلام والاسقام ، الذي لا أغمض عيني فيه الا لافتحها على صديق يغدر صديقه ، واخ يخون اخاه وعشير يحدد انيابه ليحضغ عشيره ، وغني يضن كلى الفقير بفئات مائدته وفقير يقترح على الغني حتى يلفه الموت فلا يظفر بامنه ، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وروبه ، ونفوس تنفاني قتلاً على لون حائل ، وظل زائل ، وغرض سافل ، وعيش باطل وعقول تنهالك وجداً على زار تحرقها ، وانياب تمزقها وعيون حائرة في رؤوس طائرة تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ما تحتها »

هكذا رأينا المنفلوطي يرمي هذا العالم بنظرات كلها شؤم كما هو شأن جماعة المنشائين في عامة شؤنهم واطوارهم واحوالهم . ولولا انه « لا يقول الا ما يعتقد ولا يعتقد الا ما يسمع صدهاء من جوانب نفسه »^(٢) لقلنا انها خطرات شاعر وجدت لها من مهاد مخيلته مظاً ثم ما لبثت ان ادركها الغروب . اما وان هذا الكلام هو صورة من صور نفسه فلا جرم انها حالة نفسية كثيراً ما تعرو من يميلون الى التجرد عن المادة ويرون في سكون الموت وظلمته حياة مفعمة بالحركة والنور والرغد والسرور . . .

دمشق : صلاح الدين القاسمي